٩ ـ بين القاهرة وطوس

من طوس الى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

برحنا المشهد عائدين إلى طهران والساعة عشر إلا ربعا من صباح يوم الاثنين سادس رجب (١٥ أكتوبر) فمررنا بقرية اسمها قدمگاه (موضع القدم) وقد ذكرتها فى سيرنا من نيسابور إلى مشهد وأرجأت الكلام عنها إلى الاياب إذ لم نعرج عليها فى الذهاب. وقفت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار فدخلنا ساحة بين جدارين فيها طاقات لا أبواب لها بناها بعض السلاطين ليأوى إليها المسافرون. ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجرى ماء. فانتهينا إلى شجرات عاديّة بجانبها حجرة كبيرة. ولقيَنا قيم المكان فقال أنا كشيش قدمگاه. قلنا ياصاح إن الكشيش رجل الكنيسة وأنت رجل مسلم، فقال أنا خادم القدم المبارك. ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بَنِيّة فيها حجر بركانى أسود فيه أثر قدم. قال دليلنا هذا قدم الامام على الرضا، ثم خرج بنا إلى حجرة أخرى فى وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن سمكات صغيرات يجلن بين سطحه والقاع. قال هذه عين الامام الرضا فاشربوا. فغسلنا أيدينا داعين منشدين:

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة »

نزلنا سائرين إلى الجادّة فشربنا الشاى وقوفاً واستأنفنا المسير إلى نيسابور. ونزلنا فى الخيام التى ضربت لنا من قبل عند قبر الخيّام فاسترحنا وطعمنا.

خرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بعد الظهر، فوردنا سَبزوار ستّا إلا ثلثا، فأوينا إلى النزل الذى وصفته من قبل، وبعد العشاء اجتمع بعضنا فى حجرة الأستاذ العلاّمة كوپرلى زاده محمد فؤاد مندوب الحكومة التركية، وجاء مغنّون من أهل القرية فغنّوا من رباعيات الخيام وغيرها ضاربين على التار (آلة تشبه العود) فطربنا لهذا الغناء وهذا المجلس الذى جلس فيه علماء من أمم شتى دون ترتيب ولا تكلف، بعضهم على السرُر والآخرون على الأرض، فأخذنا نوقّع بأيدينا على نغمات التار. ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الدانمركى وقد مدّ رجليه وأمسك عود الدخان (البيبة) بفمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى.

برحنا سبزوار والساعة تسع ونصف، فبلغنا داَور زَن بعد ساعة ونصف ونزلنا بها منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا. ثم فارقناها والساعة واحدة ونصف تؤم شاهرود، وكان بردها لا يزال عالقا بى، فقلت لأصحابى: سأترك فى شاهرود العلة التى أخذتها منها. قال الأديب رشيد الياسمى: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. وبعد ساعة وقفنا على قرية اسمها عباس أباد فجاء شبان يعرضون علينا من صنعة القرية مصابيح وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر أزرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى. ثم سرنا فمررنا بزيدر فنزلنا بها ربع ساعة فشربنا الشاى عند شجيرات وقناة هناك، وأسرعنا المسير ليتسنى لنا أن نعرج إلى بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب، فعطبت سيارتنا على مقربة من شاهرود، وذهبت فضلة الوقت فى إصلاحها فاضطررنا أن نعدل عن بسطام إلى شاهرود فوردناها بعد المغرب ونزلنا فى دارين داخل البلد استُبدلتا بالدار التى بظاهر البلد بعد الذى أصابنا من بردها فى الطريق إلى المشهد. وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادى والأديب أحمد الصراف آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر، فما زلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء فى زيارة أبى يزيد فسرنا مع الركب آسفين مرسلين للشيخ الصوفى تحيتنا على البعد

سرنا عن شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزمعين أن نبلغ طهران عشية اليوم. وبين شاهرود وطهران أربعمائة كيل وثلاثة. وردنا دامغان بعد ساعة، فرأينا أن نتلبث بها لنرى بعض مشاهدها ولم تكن وقفتنا بها فى ذهابنا إلى المشهد،

كانت دامغان مدينة قومس، وهى اليوم من ولاية طبرستان وتبعد ٦٤ كيلاً من استراباد، جنوبىّ جبال ألبرز. على حدود العراق العجمى وخراسان. ويقال إنها فى موضع مدينة هِكَتُمبيليس إحدى المدن العظيمة فى مملكة الأشكانيين القديمة، وأن اسكندر المقدونى أدرك دارا الثالث قتيلاً على مقربة منها.

قال ياقوت راويا عن مسعر بن مهلهل : « الدامغان مدينة كثيرة الفواكه . وفاكهتها نهاية . والرياح لاتنقطع بها ليلاً ونهاراً . وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة فى الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسماً لمائة وعشرين رستاقاً لايزيد قسم على صاحبه ، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة . وهو مستطرف جداً مارأيت فى سائر البلدان مثله ولاشاهدت أحسن منه »

قال ياقوت : « قلت أنا جئت إلى هذه المدينة فى سنة ٦١٣ مجتازاً بها إلى خراسان ، ولم أر فيها شيئاً مما ذكره لأنى لم أقم بها »

وأنا أقول قول ياقوت ، وأزيد أن مقسم هذه المياه تهدم إبان الغارة الأفغانية فيما يقال

وإلى الشمال الشرقى من المدينة ، ينبوع عظيم يسمى چشمه على (ينبوع على) يزوره الناس ، ويزعمون أنه يفيض على حجريه أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه . وقد بنى حوله فتح على شاه سنة ١٢١٧

وقال ياقوت : « وبينها وبين كردكوه قلعة الملاحدة يوم واحد ، والواقف بالدامغان يراها فى وسط الجبال »

سألنا عن الآثار الساسانية التى بدامغان فقيل لنا إنها بعيدة عن البلد ، وطريقها غير معبدة ، وهى ليست ذات خطر . ثم هُدينا إلى بناء اسلامى قديم ، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالأرض ، ينتهى إلى حجرة كبيرة فى وسطها قبر كبير عليه سياج من الخشب ، وعليه كتابة قديمة كثيرة ، وإلى يسار الداخل قبر صغير لاسياج له ، فأما الضريح فقيل إنه لأحد أبناء الأئمة العلويين ، وأما الذى إلى يسار الداخل ، فقيل إنه لشاهرخ ، ورأينا حجرة أخرى مُغلقة كتب عليها : أمر بعمارة هـذا البناء شاهرخ . وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيمورلنك ، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات فى الرى . ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادرشاه ، الذى أسره آقا محمد القاجارى فى دامغان ، ومازال يعذبه ليسلم إليه خزائن جده نادرشاه حتى مات سنة ١٢١١ ، فقلت هـذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشرة وربع فنزلنا منزلنا الأول فى المصنع الذى بظاهر البلد . وقلت للأستاذ العبادى لايفوتنا اليوم أن نرى مسجد الجمعة فى سمنان . فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة « إيران باستان » فرافقنا وصحبنا فى الطريق أحـد ضباط الشرطة ، ودخلنا من باب كبير تزينه نقوش وتماثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه الى طريق على جانبيها أبنية للجند وخرجنا من باب آخر فسرنا فى شارع مشجر وأزقة ضيقة ، ثم ترجلنا وتركنا السيارة وتخللنا الطرق حتى انتهينا الى مسجد صغير جميل ، قرأنا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوى

ثم ذهبنا الى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم ، وأقدم ما فيه منارته ، وهى فيما يظهر بقية مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد الحاضر على جانب من عرصته . ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان شاهرخ بن تيمور سنة ٨٢٨

وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا فى سوق طويلة مسقوفة تنبئ بعظم المدينة فى الماضى ، وقد أنشدنى الأديب سيف آزاد فى مسجد سمنان بيتاً معناه

« وا أسفا على المسجد الذى فى سمنان ، إنه يوسف فى السجن »[1]

اجتمعنا على الغداء فى سمنان ، ونحن نعلم أن الركب سيتفرق فى طهران فلا يجتمع ، فتكلم بعض الوافدين شاكراً حكومة إيران ، والموظفين الذين رافقونا فى مسيرنا إلى طوس وإيابنا ، وأجاب السيد ابتهاج والأديب وشيد الياسمى معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف الخ ، وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف نبلغه والحكومة الايرانية شكرنا . وكان الوزير قد تخلف فى المشهد هو والوزراء الآخرون ، ليصحبوا جلالة الشاه فى سفره إلى جرجان . . .

ركبنا السيارات والساعة اثنان وربع بعد الظهر ، فجدّ بنا المسير حتى نزلنا فى فيروز كوه فاسترحنا وشربنا الشاى فى مطعم هناك . ثم ركبنا فما زلنا فى فيروز كوه (جبل فيروز) قمه وشعابه ووديانه حتى عيل الصبر ، وأظلم الليل ورهقنا الاعياء . ثم دخلنا طهران والساعة ثمانية من المساء فأوينا إلى الفندق بشق الأنفس

(يتبع) عبد الوهاب عزام

---

(١) صيف بر مسجد كه در سمنان بود يوسف حسنى كه در زندان بود